المقتطف ٧

الجزء السابع من السنة الحادية والعشرين

١ يوليو (تموز) سنة ١٨٩٧ الموافق ١ صفر سنة ١٣١٥

سقراط الحكيم

هو فيلسوف اثينا بل فيلسوف اليونان. ابوهُ نحّات وامهُ قابلة فسما بعقلهِ ونفسهِ لا بجسمهِ ونسبهِ. لم يكتب كتابًا ولم يبتنِ مدرسة ولكنَّ تلامذتهُ ومريديهِ خلّدوا ذكرهُ في بطون الاسفار. ولا بذكر الفلاسفة الذين فكروا فيود العقل وحموا حمى الفضيلة الاَّ ذكر سقراط في مقدمتهم

ولد باثينا نحو سنة ٤٦٩ قبل الميلاد وقرأ فيها الفصاحة والادب ودرس الهندسة والفلك ووقف على فلسفة اناكساغوراس الذي حاول تعليل الحوادث الطبيعية بالاسباب الطبيعية (كما يفعل علماء الطبيعة الآن) وخالف اهل الكهانة والتنجيم وسفّه آراءهم ونقض مزاعمهم ولكنهُ لم يتّبع خطتهُ في البحث عن العلة الاولى التي تؤلف بين العناصر وتسلط على المراد كما فعل اناكساغوراس لانهُ حسب ذلك من المباحث العقيمة التي لا تجلب نفعاً ولا تدفع ضرًّا وفضّل عليها ان يعرف الانسان نفسهُ ويكيّف اهواءهُ

وكان اثينا في ذلك العصر مباءة لفريق من العلماء السفسطائية وهم مثل علماء اللغة والبيان الذين نشأوا في دول العرب لما تقلّص ظلُّ العلم عنها شأنهم المجادلات والمحاكمات اللغوية والنحوية وتزويق الكلام بالنكت البديعية والمقام المخصوم بالسفسطات المنطقية فكان سقراط يتردد عليهم ويجادلهم ولا يبعد انهُ استفاد منهم تنزيل الفلسفة من السماء الى الارض واستخدامها لمصالح البشر كما قال شيشرون الخطيب الروماني. فان الفلاسفة الاقدمين كانوا يقصرون فلسفتهم على الامور العلوية والمباحث العقلية مما هو وراء الطبيعة او مما لا فائدة لهُ في الاخلاق والمعاملات فجاء السفسطائية وتركوا الفلسفة واهتموا بما يصلح شأن الانسان بين اقرانهِ ويغلبهُ على خصومهِ في مجالس القضاء ولكنهم تركوا تهذيب النفس والاخلاق فقام سقراط وتوسّط بين الطرفين فذهب مذهب السفسطائية في توخي النفع ولكنهُ استخدم الفلسفة لذلك ولم يعبأ بالمزعجات التي كان السفسطائية يعتمدون عليها فكان من السفسطائية ولكنهُ كان اعظمهم وافضلهم

قلنا ان اباهُ كان نحاتاً ويقال انهُ احترف حرفتهُ وكانت من اشرف الحرف عند اليونان واكثرها ربحاً فلما مات ابوهُ تركهُ على شيء من الثروة فعكف على طلب العلم كما تقدّم ورآهُ رجل من الاغنياء راغباً في العلم فجاد عليهِ بالمال لكي يسهل عليهِ الطلب

وكان جهاد الناس في تلك الازمان يقتضي تجنيد كثيرين منهم فحضر سقراط ثلاث معارك اظهر فيها من البسالة والصبر على المشاق ما اذاع اسمهُ بين رفاقهِ فكان يمشي على القدم حافياً وليس على بدنهِ سوى ردائهِ العادي حين كان الجنود يتذمّرون بالثياب ويقيمون في خيامهم خوفاً من البرد. ونال الجائزة التي تعطى للبطل الباسل جزاء بسالتهِ ولم يبقها لنفسهِ بل وهبها لشاب رآهُ يحارب ببسالة بعد ان نجاهُ من القتل فان هذا الشاب جرح وهو بين صفوف الاعداء وسقط ولم يستطع القيام فادركهُ سقراط ودفع عنهُ الاعداء ثم احتملهُ ونجا بهِ. ورأى زينفون المؤرخ في معركة أخرى وقد سقط جريحاً فحملهُ على منكبيهِ وابعد بهِ عن مواقع الخطر

وكان يبعد عن السياسة مدَّعيًا انهُ يفعل ذلك طوعًا لالهام الهي الهمهُ باتباع الفلسفة دون سواها فيخدم بلادهُ بها اكثر مما يخدمها لو تقلَّد الخطط السياسيَّة . وقد اختلف الباحثون في حقيقة هذا الالهام وانا نبرئهُ من ان يكون خادعًا او مخدوعًا ولذلك نعتقد ان ذلك الشعور الداخلي هو نتيجة لازمة عما كان يراهُ من فساد الاحكام وحاجة الناس الى من يرشدهم في سبيل الصلاح والتي فقام فيهِ هذا الشعور مقام الاوليات البديهيَّة مع انهُ نتيجة منطقيَّة لازمة عن تلك المقدمات وذلك لا ينفي انهُ كان ميَّالاً الى الدهول شأن كثيرين من كبار العقول

واقام في اثينا ولم يعبأ بالخروج منها الى الغابات والحراج كما كان يفعل السفسطائيَّة قائلاً ان الاشجار لا تعلمهُ شيئًا بل غرضهُ الانسان فمنهُ يتعلَّم وبهِ يستفيد ويفيد . واجتمع عليهِ كثيرون من المريدين المحبين بحكمتهِ وفضلهِ ومنهم زينفون المار ذكرهُ وافلاطون الحكيم . وكل ما يُعرَف عن سقراط يُعرَف مما كتبهُ هذان الرجلان عنهُ ولو اختلفا في الخطة التي اتبعاها والغرض الذي رميا اليهِ فان زينفون كان غرضهُ الدفاع عن سقراط وتبريرهُ في عيون اهالي اثينا واما افلاطون فاظهرهُ في مظهر الفيلسوف الذي كشف غوامض الفلسفة ورفع منار الفضيلة

ولم يكن سقراط جميل المنظر ولا حسن الطلعة ولا سيما بين اقوام اشتهروا بجمال الوجه واعتدال القد . فانهُ كان افطس الانف ضخم الشفتين جاحظ العينين ولكنهُ كان مجدول العضل قوي البنية كما يظهر من احتمالهِ الجرحى من غير ان يتنع عن مقاتلة الاعداء في طريقهِ . وكان يمشي حافيًا على الدوام ويتجنب اسباب الرفاهة والترف . وكان لهُ زوجة سليطة ولعلها زادت سلاطةً مما كانت تراهُ من زهدهِ واختيارهِ شظف العيش على الراحة والرفاهة الاَّ انهُ صبر عليها وكان يوبخ ابنهُ اذا رآهُ قصَّر في اكرامها

ولا يخلو المرء من ضدٍّ ولا سيما اذا حلَّ في عيون الجمهور محلاً رفيعًا فقام الخصوم على سقراط إما غيرةً منهُ وحسدًا لما نالهُ من الشهرة بين مريديهِ او انتقامًا منهُ على استخفافهِ بالسفسطائيَّة وبدعاة المذاهب الدينيَّة الباطلة وعلى مقاومتهِ للذين همهم الدنيا وحطامها وهم غافلون عن تهذيب الاخلاق وتطهير النفوس

واتَّهمهُ اولئك الخصوم تهمتين كبيرتين الاولى انهُ استخف بآلهة بلادهِ ووجَّه الافكار الى آلهة اخرى غيرها والثانية انهُ افسد عقول الشبان وآدابهم وهما من التهم التي تروج سوقها في كل بلاد منحطة . وكان خصومهُ قد جاهروا بعداوتهِ منذ جاهر بمخالفتهم وقت محاكمة القوَّاد وذلك انهُ نشبت حرب بحرية بين سفن الاثينيين وسفن الاسبرطيين فدارت الدائرة على الاسبرطيين وثارت العواصف حينئذٍ فمنعت الاثينيين الظافرين من جمع الاسلاب ودفن

القتلى والفرق انهم قوادهم بمخالفة قوانين البلاد واهانة آلهتها وحوكموا وحُكم عليهم بالقتل وكان سقراط من اعضاء المجلس فبذل جهده في تبرئتهم فذهب سعيهُ سدًى فطلب ان يحاكَم كل واحد منهم على حدتهِ لعلهُ يظفر في تبرئتهم فلم يجب طلبهُ واخيرًا أُخذت الاصوات فكانت الاكثرية على معاقبتهم بشرب السم . وتُعلم براءة اولئك القواد وكرم اخلاقهم من ان واحدًا منهم اتهمهُ ديوميدون رأى الناس محتشدين حولهُ وهو ذاهب لشرب السم فقال لهم " انا قد سامحناكم وعسى ان ما فعلتموهُ بنا لا يعود عليكم بالضرر لكننا كنا قد نذرنا للآلهة نذور الشكر اذا فزنا على الاعداء فيجب ان نفوا بها بدلاً منا "

فلما أُتي بسقراط للمحاكمة لاجل التهمتين اللتين اتهم بهما رأى خصومهُ سبيلاً للانتقام منهُ فدافع عن نفسهِ دفاعًا بليغًا اثبتهُ افلاطون . وقال بعد احتجاجهِ " قد تستاءون لانني كلمتكم كلام الرجل الحازم فانكم كنتم تنتظرون ان افعل كما يفعل غيري في موقف اقل خطرًا من موقفي وهو ان اتذلل لكم واطلب منكم ان تصفحوا عني مآتي باولادي وذوي قرباي ليفعلوا مثلي فان لي اقاربَ مثل غيري ولي ثلاثة اولاد ولكن ما منهم مَن يقف امامكم لهذا الغرض لا لانني احب العناد ولا لاني اريد ان استخف بكم بل لانني احسب ان عملاً مثل هذا يحط من قدري وزد على ذلك انهُ لا يجوز لي ان ارتضاكم يوجه يحرفكم عن العدل في القضاء . وغاية ما يُطلَب مني ان ارشدكم الى الصواب اذا وجدت الى ذلك سبيلاً . ولقد اقسمتم ان تتبعوا ارشاد ذمتكم وان تحكموا حسب الشريعة لا ان تحولوا الشريعة لاهوائكم وعليكم ان تبرُّوا بقسمكم وحاشا لي ان اعودكم الحنث فاترك الامر لكم وللآلهة لكي يجري القضاء مجراهُ "

فحُكم عليهِ بأكثرية قليلة ستة من نحو خمس مئة ولم يعيَّن نوع العقوبة . وكان اصدقاؤهُ يحاولون ان يجعلوها غرامة مالية ليدفعوها عنهُ فلم يقبل ولما رأى القضاة عنادهُ جعلوا العقوبة الموت سمًّا فقال لهم " لقد حكمتم عليَّ لانني لم اتملقكم ولم اخاطبكم بكلام تودون سماعهُ ولكنني غير نادم على ما فعلت . حكمتم عليَّ بالموت لكن الحق قد حكم عليكم بانكم اشرار خلَة "

وقيد الى السجن وتُرك فيهِ ثلاثين يومًا لانهم كانوا يحفظون احتفالاً دينيًّا يمنعهم من قتل احد فيهِ وكان اصدقاؤهُ ومريدوهُ يترددون عليهِ في السجن ويتعلمون منهُ ويذاكرونهُ في مواضيع الحكمة ويقال انهُ كلمهم في اليوم الاخير عن خلود النفس وقال لهم انهُ يرجو ان يكون موتهُ بداءة حياة جديدة . ثم جيء بالسم في كاس فودَّع اولادهُ واصدقاءهُ كما ترى في الصورة المرسومة في صدر هذا الجزء وتجرَّع السم غير هيَّاب ولا جزع ولما رآهم يكون نهاهم عن البكاء وطلب منهم ان يتحملوا فراقهُ بالصبر

قال افلاطون "هكذا كانت نهاية صديقنا واني اعدُّهُ احكم كل الناس الذين عرفتهم واعدلهم وافضلهم" . وكانت وفاتهُ في الثانية والسبعين من عمره

هٰذا من حيث الرجل اما فلسفتهُ فلم تكن مبنيَّة على كونهِ رجلاً صالحاً يعلّم الناس ان يحسنوا صنعاً و يعيشوا عيشة البرّ والتقوى بل على كونهِ واضع اساساً للفلسفة وهو المعرفة فكان ينهى الناس عن بعض الاعمال لا لانها خطايا وقد نهت الشرائع الدينيَّة عنها بل لانها تدل على جهل عاملها وعدم تقديرهِ العواقب فكان يندد بالجهل و يطلب من الناس ان يقلعوا عنهُ لئلاَّ يعود عليهم بالضرر . وكان لهُ اسلوب في اقناع الناس يسمَّى التهكم السقراطي وذلك انهُ كان يتجاهل امام خصومهِ حتى يضطرهم الى الاقرار بما ينتج عن مقدماتهم وآرائهم . وكان يقول ان شأنهُ في الامور العقليَّة شأن امهِ في توليد الاطفال (فانها كانت قابلة كما تقدم) ومن ثم سمّي اظهار الحقائق التصورية توليداً . وجرى على طريقة السؤال والجواب في مذاكرة تلامذتهِ . وقد عزا اليهِ ارسطوطاليس وضع طريقة القياس المنطقي المعروف بالاستقراء اي التوصل من الجزئي الى الكلي او من الخاص الى العام والبحث عن الحدود الجامعة . وكان يوضح اقوالهُ بأمثلة مألوفة يجردها من اعمال النجّارين والحاكة والاساكفة ولهذا كان يهزأ بهِ خصومهُ

اما الاديبات فلهُ فيها المقام الاسمى واساس ادبياتهِ ان الفضيلة معرفة والرذيلة جهل . فالاعمال الفاضلة هي التي يعرف عاملها ما يجب فعلهُ وما يجب تركهُ فيعمل الاول و يترك الثاني لانهُ ما من احد يعرف حقيقةً ما هو الخير ثم يعمل الشر

وقال زينفون ان سقراط استدلَّ على وجود الآلهة بما في الكون من علامات القصد فان كان ذلك صحيحاً فقد سبق بترو بالي وغيرهُ من الفلاسفة المسيحيين الذين قاموا في هٰذا القرن . لكن ما اثبتهُ افلاطون عنهُ لا يؤيد ذلك ولا يؤيد ايضاً ما نُسب اليهِ من الاعتراف بخلود النفس

ولم يضع سقراط طريقة فلسفيَّة خاصة ولكن نشأ من تعاليمهِ طرق مختلفة فان اقليدس المجاري (غير اقليدس الاسكندري صاحب الاصول الهندسيَّة) اخذ اسلوب سقراط الجدلي وبنى عليهِ الطريقة الجدليَّة . وانستنس الكلبي الذي علَّم ان الفضيلة هي غاية الحياة بنى طريقتهُ على تعاليم سقراط . وكذلك ارستبس القيرواني الذي علَّم ان اللذة غاية الحياة بنى طريقتهُ على تعاليم سقراط مع ان طريقة سقراط كانت وسطاً بين هاتين الطريقتين لانهُ علَّم ان الفضيلة واللذة غير متنافيتين . ولم يخلف سقراط لا شرح تعاليمهُ على حقيقتها الاَّ تلميذهُ افلاطون وسيأتي الكلام عليهِ وعلى فلسفتهِ في جزء آخر